حقائق تاريخية
عن دمشق وحضارتها[1]

توطئة في بلاد الشام وسورية — دمشق — اسماء دمشق واشتقاقها — سكانها واجناسهم — حضارتها وعمرانها .

١
توطئة في بلاد الشام وسورية

يابلادي وانت خير البلاد ... نلت خصباً في كل سهل ووادي
فيك اغنت يد الطبيعة شعباً ... من قديم فنال كل المراد
ساعدتها يد الصناعة دهراً ... فأرتنا ثمار حسن اجتهاد
ثم دالت بنا صروف الليالي ... فكمنا كالجمر تحت الرماد
فاستعيدوا نجاحكم باجتهاد ... واتحاد لاجل خير البلاد

ان قطر الشام العزيز منسوب الى سام (اسم[2]) ابن نوح (راحة) فقيل في اسمه الشام لان السين والشين تتبادلان في اللغات الشرقية الشقائق. ولما اشتهر بثغره الذي كان مدينة صور (صخر) سمي سورية نسبة اليها. وقيل ان اليونانيين افتتحوه فرأوا الاشوريين يتولون شؤونه فنسبوه اليهم وقالوا (اشورية) ثم حذفت الهمزة وابدلت الشين سيناً فقيل فيها (سورية) واول من ذكرها بهذا الاسم هيرودوتوس المؤرخ اليوناني وبقي الاسمان متعاقبين الى يومنا . على ان الشام اكثر استعمالا لقدمها والافرنج يستعملون الثاني منها .

وكانت سورية تقسم بحسب موقعها الطبيعي الى ثلاثة اقسام (اولها) سورية الشمالية وهي تبتدىء من جبال طوروس شمالا وتنتهي عند مدخل حماه جنوباً ومن

---

(١) المحاضرة التي القاها الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف احد اعضاء مجمعنا في ردهة المجمع مساء الجمعة في ٢٧ تشرين اول سنة ١٩٢٠ على نخبة العلماء والادباء وطلبة العلم .

(٢) وضعنا معاني بعض الاسماء بين هلالين تتمة للفائدة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

امهات مدنها انطاكية وحلب وحماه و(ثانيها) سورية المتوسطة وهي التي أطلق عليها الكتبة المتأخرون اسم سورية المجوفة تعريب كلمة Coelé - Syria والأولى ان يقال في تعريبها وادي سورية كما قيل وادي النيل في ارض مصر ووادي الرافدين اي الفرات ودجلة في العراق. وهذه تبتدىء من مدخل حماه شمالاً وتنتهي جنوبي صور جنوباً ومن امهات مدنها الداخلية دمشق وتدمر وبعلبك وحمص . ومن امهاتها الساحلية طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور. و(ثالثها) سورية الجنوبية وهي مابقي من سورية ويدخل فيها ماعرف قديماً باسم بلاد كنعان (المنخفض) او فلسطين (المتغربين) وسميت بعدذلك بأرض الميعاد والارض المقدسة واشهر اسمائها اليوم فلسطين عند العرب والافرنج وتمتد من مياه الحولة شمالاً الى العريش جنوباً ومن مدنها الداخلية اورشليم او القدس الشريف وحبرون اي الخليل والناصرة وطبرية ونابلس ومن الساحلية عكاء وحيفا ويافا وغزة والعريش .

ومعدل طول هذه البلاد جمعاء من الشمال الى الجنوب نحو سبع مائة كيلومتر وعرضها من الغرب الى الشرق نحو اربع مائة وخمسين فيكون مجموع مساحتها ١٠٩٫٥٠٩ — اميال مربعة. وبلغ عدد سكانها في القديم من عشرة ملايين الى خمسة عشر مليونا واليوم لايتجاوز المليونين والنصف فمعدل سكانها ٢٥ نفساً في كل ميل مربع . ولقد حددها الشيخ عبد الغني النابلسي قدس سره بقوله :

وحد الشام طولاً من عريش ... الى ارض الفرات المستجاد
ومن جسر المسيح يقال عرضاً ... الى طرسوس للبلد المراد
ومن يافا كذاك الى معان ... فشام كل ذلك من بلاد

وقيل لسكان هذا القطر الآراميون تغليباً نسبة الى آرام (المرتفع) وهو ابن سام ابن نوح الذي اشتهرت فيه قبائله ولاسيما أنها كانت آخر سكانه القدماء عند فتح اليونانيين فبقي اسمهم متداولاً. ولكن اليونانيين والرومانيين سموا القسمين سورية. والعرب جاروهم بذلك ثم غلبوا اسم الشام. ومما يؤثر عن هذا القطر ان الملك هرقل لما غادر انطاكية الى القسطنطينة على اثر فتح العرب في عهد خلافة الامام عمر بن الخطاب (رضه) ودع البلاد بلغته اليونانية قائلًا (سوزه سورية) اي كوني بسلام ياسورية. وكانت عاصمتها منذ القديم دمشق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٢

دمشق

ان مدينة دمشق هذه موضوع الكلام في هذه المحاضرة هي اقدم مدن سورية لان القبائل التي هاجرت الى هذه البقاع اقامت اولاً في هذه الانحاء لتوفر خصبها بكثرة مياهها ثم تفرقت وسترون في ما يأتي ادلة قاطعة تثبت قدمها. حتى ان استرابون المؤرخ ذكر مغاورها في العصر الظراني (الحجري) ولا تزال آثارها فيها وحولها فلهذا كانت هذه المدينة العريقة في القدم اشهر مدن سورية وافخمها آثاراً (ماعدا مدينة بعلبك) واوفرها خصباً واغناها خيرات واكثرها متنزهات واغزرها مياهاً . ولقد ذكرتها آثار قصر الكرنك المحفورة على جدرانه في مصر منذ القرن السابع عشر قبل الميلاد ثم مراسلات تل العمارنة بعد قرنين كما ذكرتهـــا التوراة وكثير من الكتب التاريخية القديمة .

وعلوها عن سطح البحر الرومي الفان ومائتان وستون قدماً وموقعها في مستوى من الارض يشرف عليها جبل قاسيون المعروف بجبل الصالحية نسبة الى الصالحين الذين هم من بني (جماعة) من الكنانيين النابلسيين المنتسبين الى مسجد ابي صالح[1] خارج الباب الشرقي منها لنزولهم فيه وانتسابهم اليه ثم لانتقالهم الى سفح ذلك الجبل الذي نسب اليهم وبقيتهم هي اليوم آل النابلسي عندنا. وعلو قاسيون ٣٧٠٧ اقدام. ويشرف عليها ايضاً من الغرب الجنوبي جبل الشيخ المعروف قديماً بجبل حرمون (القمة العالية) وعلوه — ٩٤٠٠ - قدم وهو يرطب جوها بنداه البايل المحمول على اجنحة النسيم وحولها الغوطتان الشرقية والغربية وهما من متنزهات الدنيا الاربعة لانهما حدائق رائعة وجنان غناء واشجار غيباء ينساب فيها نهر بردى (البارد أو اللودي) وينضم اليه نهر الفيجة (الينبوع) فيدخل المدينة ويتوزع عليها انهراً سبعة بهندسة بديعة فيروي جميع الارض التي حوله والمدينة بجميع احيائها ولذلك سماه اليونان

---

(١) ان مسجد ابي صالح قديم كان يلزمه ابو بكر بن سيد حمدية الزاهـــد وقيل انه جدده ثم خلفه فيه ابو صالح صاحبه فنسب اليه ولما حوصرت قرية جماعيل النابلسية في ايام الحروب الصليبية تزك آل جماعة هؤلاء بلادهم وهاجروا الى دمشق فنزلوا فيه كما مر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بلغتهم مجرى الذهب (Chrysorrhoas) لخصب ارضه وبه لقب يوحنا الدمشقي من قدماء العلماء الدمشقيين الذين نبغوا في ايام الدولة الاموية لفصاحته .

والمدينة مسورة بسور عظيم منيع ذات ابواب حديدية ضخمة وبقي سورها وابوابها الى زمن ابراهيم باشا المصري (١٨٣١ - ١٨٤٠م) فسلمه السكان مفاتيح المدينة عندما فتحها ودخل من بوابة الله مع حاكم لبنان الامير بشير الشهابي الكبير وولده الامير خليل وأمن الاهلين وكانت قلعة دمشق قديمة وحصنة ولها سور حولها وخندق يردعنها الغارات فجددت في العصور المتوسطة ولاتزال أبنيتها ماثلة في غربي المدينة .

ولقد جمعت اسماء المؤلفات في هذه المدينة مما سمي باسمها فكانت اكثر من خمسين واكبرها تاريخ ابن عساكر المشهور وهو من مخطوطات المكتبة الظاهرية الشهيرة طبع منه خمسة مجلدات مؤخراً مختصرة مفيدة ورأيت في كثير من تلك المؤلفات وصف تاريخ الشام ودمشق وعمرانها وحوادثها . ولكن كل واحد نقل عمن قبله في الغالب دون تمحيص وتحقيق فتكرر الكلام والخطأ وخبط الباحث في تفسير الاعلام وبقي الاشكال غامضاً فحبذا لو اعتمدنا على فلسفة التاريخ ودرسنا علم الآثار القديمة او العاديات ومعارضة اللغات واشتقاقها فان في ذلك مغنماً للمؤرخ يحقق فيه الآراء ويصحح النقول فيعتمد الآتون على اقواله . ولله در لوقيان القائل : « من العيب العظيم في التاريخ ان لا تفرق بين ما هو حقيقي ثابت وما هو خيالي واهن » . وياقوت الحموي الذي عقب على قول من تمحل لكلمة اصبهان وجوهاً غريبة في اشتقاقها (١ : ٢٧٠) بما نصه : « وما اشبه قوله هذا الا باشتقاق عبد الاعلى القاص حين قيل له : لم سمي العصفور . قال : لانه عصى وفر . قيل له : والطحلب . قال : لانه طفا وسال — اهـ » .

فرأيت في اول محاضرة انتدبت لالقائها على منبر هذه الروضة بعد استعادتي الى هذا المجمع العلمي ان اتخذ تاريخ دمشق موضوعاً لي ممحصاً على قدر ما فسح لي الوقت ووصل اليه الذرع بعض ما كان مستوراً بحجاب الاهمال في تحليل الاسماء والتعليل عن الحوادث . على انني لم اتعرض الا لتحليل الاعلام الاعجمية في كلامي لغموض اشتقاقها عنا . تاركاً الاعلام العربية لاننا ندركها بالبداهة . راجياً من لطفكم ايها الكرام الاغضاء عن الهفوات . فليس ما تسمعونه الآن من الآراء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحديثة في التاريخ الا تنبيهاً الى البحث والتنقيب للتحقيق والتمحيص ليكون تاريخنا كاملاً مبنياً على الحقائق الراهنة والبراهين الدامغة . فلا تحملوه بارعاكم الله على غير حسن القصد والله حسبي .

٣

اسماء دمشق واشتقاقها

من الفوائد التاريخية الدالة على تحقيق بعض الآراء في التاريخ الصحيح تحليل الاسماء القديمة ومعرفة معانيها وأصول مبانيها فهي اشبه بالآثار القديمة في تأييد الحقيقة او التقرب منها على قدر الطاقة وعلى هذا أحلل الآن اسماء هذه المدينة وهي كثيرة ذكر منها القلقشندي المشهور في موسوعته (صبح الاعشى) المطبوعة حديثاً ـ دمشق وجلق وحكى في الروض المعطار تسميتها جيرون والعذراء ..الخ

اولها الشام ـ ان هذا الاسم اقدم اسمائها لانه اسم أب الذين احتلوها واختطوها من اللوديين والاراميين كما سترى قريباً . وهو الغالب على السنتنا الى اليوم . ولا سيما عند العامة حتى انهم قلما يقولون (دمشق) .ومعنى سام بالعبرانية اسم فهو بلا شك اب الاسماء واسم اب الآباء الذين تديروها . ولقد ذكره النابغة الجعدي عند فتح هذه المدينة في أيام العرب وتعيير ابي الزهراء القشيري باصابة رجله في مواقعها. فقال النابغة يخاطب المعير :

فان تكن قدم (بالشام) نادرة[1] فان بالشام اقداماً وأوصالا
وان يكن حاجب ممن فخرت به فلم يكن حاجب عماً ولا خالا

فتكون تسمية عاصمة الشام باسم بلاد الشام من باب تسمية الجزء باسم الكل مجازاً . وقال صاحب مراصد الاطلاع : مسجد الشام في بخارى العجم . والشام موضع في بلاد مراد . والشام محلة في تبريز مشهورة وهو يدل على انتقال هذا الاسم مع سكان البلاد الذين حملوه في هجرتهم ورسموا به الاماكن التي نزلوها .

ثانيها دمشق ـ لقد أول المؤرخون هذا الاسم تأويل شتى والاقرب في هذه التسمية أنها لودية او أرامية (أي كلدانية او سريانية قديمة) ذكرتها آثار الكرنك وكتابات تل العمارنة باسم (تماسكو) باللغة الهيروغليفية (اللغة المصرية المقدسة)

(١) أي زالة وواقعة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومعنى الكلمة المزهرة او المثمرة تسميه بغوطتها الخصيبة . ولقد ذكرها كثير من العرب بهـذا الاسم منهم ابو عبادة البحتري بقوله :

اما دمشق فقد ابدت محاسنها وقد وفى لك مطريها بما وعدا
اذا أردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا

ومن هـذا الاسم اخـــذ اليونانيون كلمة Damascas وعنهم نقل الافرنج تسميتهم للمدينة وصناعاتها كما سيأتي :

واما قولنا (دمشق الشام) فليس الا تمييزاً لهـا عن غرناطة الاندلسية المسماة (دمشق الغرب او الاندلس) لان سكانها كانوا من طوارىء دمشق الذين ذهبوا اليها مع من ذهب الى الغرب فاختاروها سكناً لهم لكثرة مياهها وحدائقها وجبل الثلج المطل عليها فكانت اشبه بمدينتهم الاصلية . ولكن ابن جبير الكناني في الرحالة فرّق بين الدمشقين بقوله :

يا (دمشق الغرب) ها تيك لقـد زدت عليهـا
تحتك الانهـــار تجري وهي تنصب إليهـــا

وورد اسمها مؤنثاً في شعر عبد الرحمن بن صهيل لما حاصر عسكر يزيد بن ابي سفيان هذه المدينة بقوله :

فبلغ أبا سفيان عنا باننـا على خير حال كان جيش يكونها
وأنا على بابي (دمشقة) نرتمي وقد حان من بابي (دمشقة) حينها

الثالث جلق ـ لقد غمض اشتقاق هذه الكلمة عن كثيرين فلم يهتدوا إلى اصله والذي اراه (إما انها) يونانية تحريف Jinic ومعناها امرأة وكان فيها كنيسة بهذا الاسم ذكرها ابن عساكر وغيره ولعلها كنيسة باسم مريم ام المسيح (عيسى) وقرب الكنيسة باب الجنيق المسدود في زمن ابن عساكر . فقيل (جنّق) ثم بالابدال (جلّق) و (إما انها) فارسية من كلمتين هما (كل) اي زهرة او وردة و (لك) بمعنى مائة الف فيكون مجمل معناها مائة الف زهرة اشـــارة الى غوطتها ثم عدلوا عن الضم في اولها الى الكسر واتبعوا اللام للتخفيف فقالوا (جلق) . وعلى هذا الرأي تكون من تسمية الفرس الذين امتلكوها في القرن السادس للميلاد ولذلك كانت شائعة في زمن حسان بن ثابت الانصاري فذكرها بهـذا الاسم في قصيدة وصف بها آل جفنة الغساسنة حكام دمشق اذ ذاك :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لله درُّ عصـــابة نادمتهم يوماً (بجلق) في الزمان الاول
يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

وأما البريس او البُرَيص الذي ذكره حسان هنا فهو اما متنزه او قصر وربما كان محرفاً عن كلمة baradisos اي براذيسوس اليونانية ومعنـــاها المتنزه او الفردوس . وكان البريص يسمى ايضاً المقسلاط وهو موضع النحاسين الآن. ولعل اسم بردى من هذه الكلمة وقال في مراصد الاطلاع : (جلق) ناحية بسرقسطة بالاندلس يسقي نهرها ٢٠ ميلاً وقيل واد شرقي الانـدلس . ثم قال : (جليقية) ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال لاندلس في اقصاه من جهة الغرب. (اه) . وهـذا دليل آخر على حمل الدمشقيين لهـــذا الاسم معهم الى الاندلس تحبباً وحنيناً الى الوطن .

الرابع جيرون ـ اطلقه بعضهم على المدينة من باب تسمية الكل باسم الجزء مجازاً لانه من ابواب جامعها الكبير ايام كان هيكلاً لليونانيين فالكلمة يونانية Jiron بمعنى فناء الدار او الهيكل ومنها اسم فناء الكنيسة او سورها عند الافرنج اليوم . وكان اسم جيرون للبـاب الشرقي من ابواب الهيكل وهو المعروف اليوم بباب النوفرة . ولا تزال آثار السور الذي كان يحدق به ظاهرة في الزقاق الذي على يمين لداخل الى الجامع من ذلك الباب وهو الموصل الى الظاهرية . وحول الباب عمودان ضخمان يدلان على عرض السوق في ذلك العهد وكانت الاروقة قائمة على هذه الاعمدة لسير الناس والسوق بينها للعجلات والحيوانات. وحوله كتابات يونانية على يمين الداخل في موضعين [1] . وعلى اليسار حانوت صغير فيه باب على اسكفته (عتبته العليا) نقوش بديعة يدل على ان الارض قد ارتفعت عن مساحة ارض

---

(١) في ربيع سنة ١١١١ . كنت في دمشق فرأيت كتابة في بيت ابي عثمان الحموي في القيمرية بجوار البئر الذهبي على يمين الداخل الى الجـامع من باب النوفرة (جيرون) ظهرت في الجـــدار الغربي عند ترميم البيت وهي يونانية تدل على ان تلك الغرفة بناهـــا مينودورس الابن الاصغر لزينوفوس امين صندوق الهيكل . وهناك حروف غير ظاهرة. وفي بيت الدردري على يمين الباب في اول بيت كتابة يونانيـــة وراء الدرج الذي يؤدي الى البيت . وكذلك في بيت السمان في القيمرية كتابة اخرى يونانية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشارع القديمة الى اكثر من نصف الباب علواً : ومثلها الى شرقي الجامع عند باب البريد ثلاثة اعمدة عليها طنف و كثيراً ماذكر الشعراء باب جيرون فقال بعضهم فيه :

باكر (دمشق) بمشق اقلام الحيا زهر الرياض موصعاً ومكللا
واجرر (بجيرون) ذيولك واختصص مغنى تـــأزر بالعلى وتسربلا

وقال بعضهم ان اصل جيرون فارسي تعريب (جروند) بمعنى السراج وهو بعيد كما لا يخفى .

ومن اغرب ما وصفت به جيرون قول صاحب مراصد الاطلاع : جيرون سقيفة مستطيلة على عمد وسقائف حولها مدينة تطيف بهـا وهي بدمشق في وسطها كالحلة . وقيل جيرون قرية الجبابرة في ارض كنعان (اهـ) .

قلت واما جيرون فلسطين فلم نر لها اثراً في ما وصلت اليه يد البحث ولكننا نظن انها تصحفت على المؤلف فالاولى ان تكون هي (حبرون) المسماة قرية اربع بل مدينة اربع وتعرف اليوم باسم (الخليل) .

الخامس اسماؤهـا الأخر ـ سميت دمشق باسماء أخر كثيرة نشير اليهـا تتمة للبحث فسماها يوليانوس الروماني (عين الشرق كله) اعمرانها . ومن اسمائها العربية (إرم ذات العماد) وانكر ذلك كثير من المؤرخين وقالوا ان اسم إرم هو للقبيلة لا للمدينة والذي اراه ان العرب لما رأوها كثيرة الاعمدة وعرفوا شأن الاراميين فيها سموها (مدينة ارام ذات العماد) ثم حذفت كلمة مدينة وعربت ارام الى إرم . ومنها (عاصمة أرام) و (أرام دمشق) تمييزاً لها عن (أرام صوبة) في وادي سورية . و (مدينة العازر) وهو خادم ابراهيم الخليل المنسوب الى دمشق . و (بيت رامون) نسبة الى هيكلها الذي كان باسم الاله رامون اللودي ومنه اسم برمانة في ظـاهر دمشق . و (حاضرة الروم) و (حصن الشام) و (بيت ملكهم) و (باب الكعبة) و (فسطاط المسلمين) و (العذراء) ولعلها نسبة الى مريم العذراء التي فيها كنيستها القديمة المعروفة بالمريمية او انها تعريب كلمة جنيق بمعنى العذراء كما مر آنفـاً . و (قاعدة وادي سورية) المعروفة بسورية المجوفة في اصطلاح مؤرخينا الآن . ومن القابها (الفيحاء) لاتساعها و (الغناء) لالتفاف اشجارها الكثيفة و (جنة الارض) لكثرة حدائقها وغزارة مياهها .

وفي تسميات احيائها وضواحيها اشتقاقات تكشف القناع عن وجه كثير من الحقائق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الغامضة التي يتحملها المؤرخون ويتكهن بها اللغويون . فمن اللغة الفينيقية (دمّر) وهي تحريف (دامور) أو (تامور) أو (تامار) وهو عندهم الاله المحامي فكأنهم اتخذوا حصناً له فيه تمثاله للدفاع عن المدينة التي كانت محطة لتجارتهم الشهيرة و (بلاط) تحريف بعل باليت . وفي جبل القلمون قرية فليطة وهي من هذا الاشتقاق .

والاسماء الآرامية أكثر من غيرها مثل (بيت لهيا) أي بيت الآلهة و (المعرة) بمعنى المغارة

ومنها الحثية مثل (الشاغور) بمعنى الصغير . (وقطنا) تحريف (كتنا) وهو اسم الحثيين وكذلك (الغوطة) فانها تحريف (الكتنة) واليبوسية مثل (يبوس) و (كفر يبوس) نسبة الى اليبوسيين من الكنعانيين . و (جديدة الجرش) نسبه الى الجرجاشيين منهم أيضاً .

واليونانية مثل (بلاس) بمعنى قصر . و (بيت اورانس) أي بيت السماء وهي الآن اطلال خربة . و (عين ترما) أي الحمة وهي العين الحارة المياه . و (افتريس) تحريف (فاراتويس) أي ضارب الاعداء ومبددهم وهو من أسماء المشتري . و (الفيجه) وهي تحريف (پيجه) اليونانية بمعنى الينبوع . و (مقرا) من متنزهاتها أصلها يوناني (مكرا) بمعنى المستطيلة . و (نهر ثورا) أي نهر النظر في اليونانية وقيل انها باسم حكيم اسمه (ثورا) أو نسبة الى تاج الملك ثوري[1] .

والرومانية مثل جبل « القلمون» بمعنى المناخ أي جودة الهواء . و « بانياس» من بان اله الغابات وهو من أسماء أنهارها اليوم .

والعبرانية « المزة » وهي باسم حفيد عيسو ومعناه « الخوف » أو هي يونانية بمعنى التلة أو الربوة وقيل عربية تحريف « المتنزه »

والفارسية «جوبر» من جويبار بمعنى مسيل النهر الصغير .

وذكر ابن عساكر كثيراً من أسماء القرى العربية مثل «صنعاء» وهي خربة الآن دون المزة مسماة باسم « صنعاء اليمن » العربية . ومثلها قرية « الحميريين » الخربة وفيها مسجد كان مشهوراً وهذا من الأدلة على أن اليمنيين تديّروها .

---

(١) هو زوج زمرد خاتون أم شمس الملوك اخت الملك دقاق توفيت سنة ٥٥٧ هـ «١١٦١م» وهي مؤسسة المدرسة الخاتونية البرانية في دمشق المنسوبة اليها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حقائق تاريخية

عن دمشق وحضارتها

تابع لما في الجزء الماضي

٤ سكانها واجناسهم

كانت قبائل العمالقة وفروعها محتلة سورية منذ اوائل الزمن التاريخي. ومنهم الجرجاشيون وغيرهم من ابناء اعمامهم كاليبوسيين . ولما حدثت زلازل شديدة ارتعدت لها فرائص الارض على ضفاف خليج العجم وما اليها في القرن العشرين قبل الميلاد هلعت قلوب سكانها من القبائل السامية واليافثية والحامية ففرّوا مذعورين من تقويض مساكنهم وتدمير عمرانهم فساحوا في الارض الى ان رأوا نجعتهم ضواحي دمشق لخصبها واتساعها فاستظهروا على سكانها من الكنعانيين وتولوا شؤونها ومنهم الفينيقيون الذين غلبهم اللوديون والآراميون والعبرانيون فتمازجت اصول قدماء السكان في سورية ووقعت اواصر النسابة بينهم المصاهرة ولكنها لم تغنهم فتيلًا فنشبت بينهم مشاحنات ونمت ضغائن قضت عليهم بالحروب المستطيلة .

وممن سكت عنهم المؤرخون أو أغفلوهم أو اشاروا اليهم من طرف خفي [١] اللودانيون اخوة الآراميين لأن سام بن نوح رزق خمسة ابناء عيلام وأشور وارفكشاد ولود وأرام .

وبما ان مملكة أرام كانت المملكة الاخيرة من هذه القبائل شاع ذكرها على السنة المؤرخين فاشاروا اليها بالتفصيل واغفلوا ذكر مملكة لود الذي كان اكبر من أرام فملك قبله واشتهر . وكان لبني لود مواقع حربية عظيمة وآثار عمران كثيرة في شمالي سورية ومتوسطها وجنوبيها . فاسسوا مملكتهم الضخمة ونزلوا دمشق

---

(١) راجع لنرمان ومسبرو المؤرخين الفرنسيين وبعض تواريخ مصر ولا سيما الاثرية منها . وكتب السياحة ونحوها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قبل اخوتهم الاراميين وأسسوا حضارتها وشيدوا أبنيتها العظيمة ولا سيما هيكل رامون المنيع الذي حول الى كنيسة القديس يوحنا المعمدان ثم الى الجامع الاموي الكبير المشهور بآثار بنائه الفخم وهندسته الرائعة . ولهذا افرد هـذه الصفحة لتحقيق تاريخهم وحسر اللثام عن أصلهم ولم أر أحداً تعرض لوصفهم بالتطويل غيري في ما نشرته في مقتطف السنة الماضية بعنوان (اقدم سكان سورية اللوديون) وهو بحث عنهم مستفيض .

تقور في هذا العصر تحقيق التاريخ بالآثار القديمة ونحوها فلهذا اذا استنطقنا هيكل الكرنك في مصر أرانا صفحات جدرانه لنطالعها فنقرأ فيها أخبار غزوات الفراعنة لهذه القبيلة التي يسمونها (روتنو) لأن اللام والدال تبدلان في اللغة الهيروغليفية بالراء والتاء فيقال في اللودان الروتان . مما يثبت ان سكان سورية حين غزا تحوتموس او (توطميس) الاول من الدولة الثامنة عشرة المصرية هـذه البلاد سنة ١٦٥٠ ق م كانوا هم اللوديين او الروتيين لا غيرهم وان شئت فقل اللودان او الروتان .

وقد شمل اسم اللودان القبائل التي لم تخضع للمصريين . وكانت قبائلهم تقسم الى لودان المغرب او الاسفل وهم سكان دمشق هذه وما اليها وبلاد فلسطين . والى لودان المشرق او الاعلى وهم سكان سورية الشمالية وجزء من غربي ما بين النهرين . فلهذا كانت دمشق عاصمة اللوديين وحصنهم المنيع في (بلودان) اي بيت اللوديين وهي مشهورة بمناعتها الطبيعية فارتفاعها ٤٥٠٠ قدم . وموقع قلعة الشقيف على علو ٦٨١٠ — اقدام منها فهي تشرف على جميع المضايق والطرق التي تأتي منها جيوش الاعداء ولا سيما المصريين الذين حاربوهم . وكلمة الشقيف كلدانية بمعنى الصخرة وأرادوا بها الحصن المنيع كالصخر او المشيد على الصخر . ومثلها شقيف تيرون في جنوبي سورية

ولما استظهر المصريون على اللوديين وملكوا منهم وادي سورية اي سهل بعلبك والبقاع وما يتصل به اقاموا حصناً على مضايق وادي يحفوفة لدفع غزوات اللوديين لهم من دمشق وضواحيها وسموه (بريتان) اي بيت الروتيين بلغتهم المصرية كما سبق . وهي الى اليوم قرية عامرة . وقربها قرية (حور تعله) وهي مركبة من (حور) الاله المصري الذي يقابل (ابلون) عند اليونان و (تعله) بمعنى تعالى . مما يدل على نزول المصريين فيها واتخاذها هيكلاً لآلهتهم . ومن غريب ما قرأت في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تاريخ ابن عساكر ان خربة (حور تعله) من ضواحي دمشق كان فيها مسجد ينسب اليها وذلك يدل على ان نفراً من الروتيين جاؤا من بعلبك واستعمروها وسموها باسم بلدتهم كما هو الحال في كثير من التسميات مثل (توبل) في البقاع . فان سكانها في زمن الايطوريين (الجبليين) الذين غلبهم بومبي القائد الروماني في منتصف القرن الاول للميلاد وكانت حاضرتهم كلشيس او خلقيس (مدينة النحاس) اي عنجر اليوم في البقاع . امتد ملكهم الى السواحل فجاء نفر من جبل توبل اومن مدينة طرابلس الشام وسكنوا هذه القرية فسموها باسم موطنهم الاول .

واذا أردنا التوسع قليلاً بامتداد الامة الروتانية في انحاء سورية نرى ان اسم (بيروت) يقرب من (بيت روت) فكأنها كانت ثغرهم البحري للدفاع عن بلادهم . وهذا أولى من تسميتها (بالآبار) كما يقول المؤرخون لان معظم المدن الساحلية لا ينابيع فيها بل آبار فقط فلماذا خصت بيروت بذلك الاسم دون غيرها ؟ . واسمها في الآثار المصرية (باروتا) وهو أقرب الى هـــذا الوجه منه الى الآبار .

ومن أوجه ما هنالك ان نهر الليطاني الذي يتخلل سهل بعلبك والبقاع ليس إلاّ تحريف كلمة لوداني او روتاني وان شئت فقل (لوتاني) فهو منسوب الى هذا الشعب القاطن في ذلك السهل الافيح وكذلك نهر البردوني المتخلل زحلة . ونهر بردى الذي ينساب في هذه المدينة يترجح انها من هذا الاشتقاق فقيل (نهر بيت روده) ثم نحت وابدل فصار بروده أو بردى وحذفت كلمة النهر . ويوجد في سهل بعلبك قريتا (حوش بردى) و (حوش الذهب) والاسمان من أسماء نهر دمشق كما مرّ . وتوجد قرية برتي في جزين ايضاً وهي من هذا النيل وقس عليها .

والمرجح ان اللوديين هم الذين شيدوا الحصون والمعاقل الفخمة في مشارف سورية وفلسطين مثل قلعة حلب وشيزر وحماة وحمص ودمشق وكرك الشوبك وغيرها لكثرة غزوات المصريين لهم . وكانت لهم عاصمتان عظيمتان هما (كركميش) المركبة من (كركو) اي حصن و (كموش) الاله القاهر . ومثلهـــا قرية (عوجموش) في البقاع قرب زحلة وهي خربة اليوم . وعرفت كركميش هـذه باسم هيرابوليس اي المدينة المقدسة عند اليونان ثم حرف اسمها الى جيرابوليس فجرابيس كما هو الآن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعاصمتهم الثانية كانت قادش او قدس بمعنى المقدسة وهي على ضفة بحيرة باسمها تدعى الآن (قطينة) نسبة الى الحثيين الذين سمّوا (كثيين) وهي في محل النبي مندو في جوار حمص حيث البعثة الاثرية الفرنسية تحتفر الآثار الدالة على حضارة تلك العصور[١] .

ومن البراهين الدامغة على صحة رأينا في هذه القبائل اللودية او الروتية ان الآثار المصرية لم تدوّن في ما دونته من اخبار غزوات ملوكها الاولين الا اسم الروتنو اي اللوديين . ولم تذكر الحثيين والاراميين الا في زمن الدولة التاسعة عشرة . وذلك لأن الحثيين استظهروا على اللوديين بعد ان دانوا لهم زمناً طويلاً ودفعوا لهم الجزية التي ضربوها عليهم فانتهز الاراميون — الذين امتزج بهم أبناء عمهم اللوديون — الفرصة للاقتصاص من غالبي أنسبائهم فضربوا الحثيين ضربات قاضية واشتهر ذكر الاراميين من القرن الثامن قبل الميلاد الى فتح اليونانيين للبلاد في القرن الرابع قبله . فلذلك نقل الينا اليونان ذكر الاراميين في منازلتهم اياهم ولم يذكروا اللوديين لانهم كانوا قد اندغموا بهم وزالت مملكتهم بيد الحثيين كما مرّ .

وكان من تأثير غلبة اليونان للاراميين انهم بدلوا اسم بلادهم (أرام) باسم (سورية) كما سبق لنا تعليل ذلك في صدر المحاضرة فذكر هيرودوتس البلاد بهذا الاسم الجديد وشاع بيننا .

فلهذا كانت حضارة دمشق القديمة من قبائل العمالقة ولا سيما الجرجاشيين واليبوسيين كما مر ثم توالى عليها ملوك اللوديين والحثيين والاراميين واليونانيين والرومانيين الى الفتح العربي وتمازجت أصول تلك القبائل بالمصاهرة .

وكانت قبائل اليمن العربية قد اندفقت الى هذه البلاد على أثر اندفاق سيل العرم في بلادها اليمنية فكان منهم قبائل الضجاعم والغساسنة والقضاعيين والاياديين

---

(١) راجع صفحة ٣١٦ من الجزء العاشر لمجلة المجمع العلمي في سنتها الاولى هذه وهذا تفصيل ما وعدنا به هناك . ولقد جاءت بعثة افرنسية سنة ١٨٩٤م الى هذا المحل واحتفرته ثم عادت في ربيع السنة الماضية . واستأنفت عملها في خريف هذه السنة . وستزيل اكتشافاتها كثيراً من الالتباس والاشكال في تاريخ الامم اللودية والحثية وغيرهما .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والايطوريين وغيرهم متخللين حكم تلك الدول بأماراتهم وملوكهم .

وغزا ملوك اشور وبابل هذه البلاد ولا سيما عاصمتها دمشق هذه وكان تغلث فلاسر ثاني ملوك اشور قد حاصرها وافتتحها سنة ٧٣٢ ق م وجلا ثمانية آلاف من سكانها الى بلدة قير في العجم وقتل ملكها رصين . ثم حاصرها شلمناصر وضايق أهلها وقطع أشجارها .

وكانت الدول العبرانية قد طمحت نفسها اليها ففتحها داود الملك وحالفته ثم انتقضت عليه بارسال نجدة من قومها الى هدد عازر ملك صوبة الذي حاربه داود فاوغر ذلك صدره عليهم وقتل من ارامي دمشق ٢٢ ألفاً واستولى على البـــلاد وأقام محافظين في ارام دمشق فاستعبد سكان هذه المدينة الاراميون مدة طويلة للعبرانيين وأدوا الجزية لهم .

وكانت دمشق مدة بيد الاشوريين الى سنة ٧٢١ ق م فاتفق سكان دمشق مع اليهود على الاشوريين ثم استولى عليها البابليون والفرس . وقال استرابون : ان دمشق كانت أشهر مدن سورية في الدولة الفارسية . وكثرت الجاليات الى دمشق من البلدان التي لها علاقة بفاتحيها . وانتقل بعض سكانها الى تلك الاصقاع سنة الله في خلقه ولا تجد لسنة الله تبديلا .

ولما ملكها اليونان كانت هذه الحاضرة مدينة عظيمة لا يفوقها الا انطاكية من بعض الوجوه .

وفي عهد استيلاء الدولتين اليونانية والرومانية عليها قدم كثير من رعاياهم وامتزجوا بسكانها وخفيت أصولهم الا بعض البيوتات التي حفظت انسابها مثل آل سرجون الذين تقدموا عند الدولة الاموية في ديوان الانشاء ومنهم نشأ القديس يوحنا الدمشقي الفيلسوف الشهير الملقب باسم نهر بردى (مجرى الذهب) كما سبق القول آنفاً . ويقال ان بيت هذه الاسرة الوطنية القديمة هو اليوم محل دير الآباء اليسوعيين قرب باب توما وان هذه الاسرة لها بقية في صافيتا تعرف فيها باسم آل الخوري لكثرة الكهنة الذين تسلسلوا منها .

وكان انقلاب عظيم عند تنصر اليونان والرومان في هذه المدينة ولا سيما في أيام تيودوسيوس الكبير الذي شدد النكير على الوثنية وابطل عبادة الاصنام وهدم بعض هياكلها ثم هدم ابنه اركاديوس بعض هيكل رامون في هذه العاصمة ثم رممه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجعله كنيسة مار يوحنا المعمدان المعروفة اليوم (بمقام سيدنا يحيى) وفي وقت قصير تنصر أهلها كلهم ما عدا اليهود .

وفي سنة ٥٤٠م فتحها الفرس ودمروا معظم ابنيتها فزادوها خراباً ثم عادت بعد قليل الى الرومان وعمالهم الغساسنة فجددوا شيئاً من حضارتها وابنيتها .

ولما كان الفتح العربي سنة ١٣ هـ (٦٣٤ م) حدث انقلاب آخر في الحضرة فهاجر منها واليها كثير من العرب والامم الاخرى التي فيها فتمازجت اصولهم . ولم يطل الوقت حتى هاجر كثير من سكانها ايضاً الى المغرب والاندلس . ثم نكب فيها العباسيون الامويين فخربوا مساكنهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فازدادت المهاجرة منها الى الاقطار السحيقة . وعند تشييد الجامع الاموي في زمن الدولة الاموية استقدم آلاف من الصناع البيزنطيين اليها وسكنوا فيها بأمرهم ونشروا فيها الصناعات الجميلة .

ولما كانت الحروب الصليبية وحوصرت الثغور والمدن رحل كثير من الامر الاسلامية الى دمشق مثل آل النابلسي وبقاياهم فيها الى اليوم وقد سبقت الاشارة اليهم .

وفي خلال تلك العصور القديمة ومابعدها كثرت الفتن بين اليهود والسوريين الوطنيين . والقيسيين او المضريين واليمنيين . والامويين والعباسيين . والمشارقة والمغاربة . والسنة والشيعة . الى ان كانت حوادث الانكشارية والقبيقول فاضطرب حبل سكانها وهجرها كثير منهم وحل غيرهم محلهم من امكنة مختلفة .

ومن اكبر نكباتها غزوة تيمورلنك (الاعرج الحديدي) فضايق الدمشقيين وشدد عليهم وأمنهم حتى سلموا وبينهم ابن خلدون المؤرخ المشهور فكان من دهائه انه قال له : دعني اقبل يدك التي اناملها الاقليم الخمسة . واراد بذلك انه كان فتح خمسة اقاليم . فدخل تيمور المدينة ولم يؤذها اولا ولكنه حاصر القلعة ونكث بوعده . فنكب الاهلين شر نكبة وسلب اموالهم واحرق البيوت وكان يعذب الامراء فيسقيهم الرماد ويعطيهم الماء والملح والكلس ويكويهم بالنار ليقروا له بأموالهم فاستخرجها منهم استخراج الزيت بالمعاصر . ثم امر بالنهب العام والسبي والفتك والقتل والاحراق والامر على الاطلاق فمزق شمل السكان كل ممزق وسبى المخدرات وبقي على هذه الحالة من الضغط ثلاثة ايام فاحرق المدينة وغادرها ملتهبة غيظاً ونقل جميع صناع السيوف والزجاج والاواني الفاخرة والاعيان ففرّ من بقي من سكانها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

خوفاً وبعد ان وثقوا بعدم عودته الى البلاد عاد قليل من السكان القدماء . وجاء المدينة اقوام من المدن الاخرى ولا سيما حماه فان كثيراً من سكان دمشق اصلهم منها منذ ذلك العهد وكذلك من الانحاء الاخرى .

وكانت الفتن قد كثرت في حوران ولاسيما بين القيسيين واليمنيين فقصدها كثير من الاسر المسيحية فلبثوا فيها مدة وبعضهم غادرها الى حمص وحماة وحلب وعكار والحصن ولبنان وغيرها . وهي اليوم معظم الاسر . وكثرت المهاجرة اليها الى لبنان على اثر الفتح العثماني في اوائل القرن السادس عشر للميلاد . فلهذا نشأت اصول اسرها وسكانها متمازجة في الغالب . فهي مختلفة الاجناس والمذاهب بين عرب وشراكسة واكراد وترك وفرس ويهود وكرج وقبط وسريان وارمن ويونان واوربيين . وبين هذه الاسر المختلفة كثير من ارباب النسب الصحيح واهل البيوتات المعروفة والبيوت العلمية على اختلاف فروعها ولاسيما الطبية فيقال ان آل بختيشوع المسيحيين لهم فيها بقية قليلة في الصالحية اليوم تعرف بآل الحكيم . وآل الرحبي من اطبائها المسلمين المشهورين نالوا منزلة رفيعة في خدمة مستشفياتها ومدارسها . واشتهر من غير هاتين الاسرتين كثير من اطبائها وعلمائها ومؤلفيها ومشاهيرها .

اما الصناعات فيها فكانت راقية كما سترى ولذلك ترى معظم اسماء اسرها مما يدل على صناعاتها القديمة مثل آل بولاد والسيوفي وجوهر وجوهري ومسابكي وصيقلي وحداد ونحاس وقزاز ومباردي وقساطلي وساعاتي وهواويني ومنير وخوام ومراباتي وجرائحي وطرابيشي واشباهها وكلها مختلفة الاجناس والاصول والفروع والاسماء ملتبسة احيانا بصناعاتها المتوافقة واصولها المتخالفة مما فصلته في كتابي (الاخبار المروية في تاريخ الاسر الشرقية) وهو في ثمانية مجلدات كبيرة لا تزال مخطوطة معدة للطبع .

« لها تتمة »

عيسى اسكندر المعلوف
عضو المجمع العلمي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حقائق تاريخية

عن

دمشق وحضارتها

« تتمة المحاضرة التي نشرت في الجزءين الاخيرين من السنة الاولى »

« في صفحة ٣٤١ و ٣٧٠ »

٥ – حضارتها وعمرانها

لقد اسس حضارة دمشق اللوديون أو الروتيون والاراميون والفينيقيون والحثيون والعبرانيون والآشوريون والبابليون والماديون (الفـــرس) والمكدونيون (اليونان) والرومانيون والعرب ومن جاء بعدهم من الأمم الاخرى .

ومما يدلنا على قدم الممالك الاولى ان اسم دمشق والشام ارامي والشاغور (الصغير) والغوطة وقطنا حتي ودمر بمعنى تاماراي الاله القادر فينيقي . وهكذا بقية الممالك التي تعاقبت عليها . على أن الدول اليونانية التي بقيت ٢٤٨ سنـــة والرومانية التي تولت شؤونها ٧٠٠ سنة والعربية التي اتخذت هذه المدينة حاضرتها احدى وتسعين سنة[1] كانت حضارتهم اساساً لما بعدها لانهم استبحروا في العمران .

ومما لا ريب فيه ان حضارة دمشق القديمة كانت وثنية فشيدت فيهـــا الابنية الضخمة منها « هيكل رامون[2] » ونحتت التماثيل ونقشت الكتابات مما ذكره كثير من مؤرخي العرب وفي مقدمتهم ابن عساكر في تاريخه المطول فانه ذكر وجود تماثيل وكتابات يونانية وكذلك ياقوت في معجمه والارمنازي في تاريخه اذ تعززت حضارتها في عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المكدوني . وفيها محل كان يعرف « بصفة بقراط » حيث كان يجلس هذا الفيلسوف فيه كما قيل .

---

(١) من سنة ٤١ – ١٣٢ هـ الموافقة لسنة ٦٦١ – ٧٤٩ م (٢) كان محل الجامع الاموي الكبير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن الرومانيين تساهلوا مع سكان سوريا ولا سيما الفينيقيين والآراميين بعباداتهم فكرموا هياكلهم اخصها هياكل دمشق وبعلبك فامتزجت العبادات الفينيقية باليونانية والرومانية امتزاجاً تدل عليه الأساطير القديمة وتحليل اسماء المدن والقرى الباقية الى عهدنا مما فصلته في كتابي « تاريخ سورية المجوفة [1] » فكان الفينيقيون يعبدون عَلْيُون وهو زُحل عند اليونان فكرمه هؤلاء كما كرموا مينرفه الهة الحكمة عند اليونان وهي سيميه عند الفينيقيين . وفي اسمي قريتي (علين) قرب زحلة التي منها اسمها و (بسيمة) في وادي الزبداني وغيرهما دلالة صريحة على هذا الامتزاج .

ولما تنصر اليونان والرومان نقضوا الحضارة الوثنية وهدموا هياكلها العظيمة وحطموا تماثيلها واستبدلوها بالحضارة المسيحية فعضدتها القبائل المتنصرة ومعظمها كان من غسان وقضاعة واياد من السلائل العربية .

ومن آثار النصرانية فيها الكنيسة المريمية الكبرى وهي من بناء اركاديوس قيصر المتوفى سنة ٤٠٨ م ذكرها كثير من المؤرخين مثل ابن عساكر والرحالة ابن جبير ، وخربت مراراً ورممت إلى أن احترقت في حادثة سنة ١٨٦٠م فذهب ما بقي من رونقها القديم طعمة للنار فرممت على طراز حديث ولا تزال المحلة القريبة منها تسمى (القيمرية) وهي على ما يلوح لي بقية كلمتي (ايكوز – ماريا) اليونانيتين اي بيت مريم وكذلك محلة (الآسية) بقية كلمة (كليسية) اليونانية بمعنى الكنيسة . ومنها كنيسة القديس يوحنا (في الجامع الأموي) أيضاً وقربها محلة (الكلاسة) ولعلها تحريف اكليسية اليونانية بمعنى الكنيسة أيضاً إلى غيرها من الديارات (الاديار) والكنائس التي في دمشق وخارجها مما وصفه المؤرخون مثل دير خالد أو دير صليبا مقابل باب الفراديس ودير مران ودير هند ودير إيا (ولعلها هي اليوم داريا) . ودير قانون في وادي بردى الغربي

وفي دمشق من هذه الآثار الباقية مقام (بولس) الرسول حيث تدلى من السور لما سجن في دمشق وهو باب مسدود له مقام . وكذلك محل (حنانيا) الرسول في

---

(١) هو تاريخ مطول في نحو ٨٠٠ صفحة يشتمل على تاريخ وادي العاصي وبردى والليطاني وما اليها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الزقاق إلى يمين الداخل من الباب الشرقي وفيه كنيسة بيد الآباء الفرنسيسكان وقربها جامع خرب .

ولكن الفرس غزوا هذه البلاد ولا سيما نحو سنة ٥٤٠ م فخربوا ابنيتها وغيروا اسماء مدنها[١] بلغتهم وصادروها حتى كاد ذكرها يمحى .

ولما فتحها العرب سنة ١٤ هـ « ٦٣٤ م » اشتهرت حضارتها في عهدهم ولا سيما في زمن الدوله الاموية التي اتخذت دمشق حاضرة لها فصكت فيها أول النقود العربية بزمن عبد الملك بن مروان . وانشأ معاوية الاسطول المؤلف من ١٧٠٠ سفينة مجهزة بالاسلحة والجنود وزعه في سواحل الشام والمغرب والاندلس . وذكر ابن النديم في الفهرست : ان اول من حفل بجمع الكتب من امراء المسلمين خالد بن يزيد الاموي فانشأ « مكتبة » في هذه الحاضرة وامر بترجمة كتب الطب والكيمياء من اليونانية والقبطية فانشأ « دار الترجمة » وكان عنده راهب مسيحي يتولى ذلك . ولقد ظهر في قبة الجامع الاموي كتب وأوراق قديمة على رقوق بالعربية والسريانية والعبرانية والقبطية واليونانية نقلت إلى المانية وبعضها في متحفنا السوري في دمشق[٢] . ثم بنى الوليد الجامع الاموي الشهير بفخامته ورونقه وانفق عليه خراج مملكته تسع سنوات مما تعادل قيمته الف الف ريال من نقودنا اليوم . وذكر ياقوت الحموي وغيره : انه تم عمله في تسع سنوات كان يشتغل فيها عشرة آلاف رجل كل يوم يقطعون الرخام . ولما شكا الناس من انفاقه هذا من بيوت مال المسلمين اجابهم : تقولون وتقولون وفي

(١) لقد مر بنا في القسم المنشور في السنة الماضية من تسميات الفرس «جلق» و«جوبر» صفحة ٣٤٦ و ٣٤٩ وبقيت اسماء كثيرة منها اسم « الزبداني » ومن رأي صديقي الأستاذ انيس افندي سلوم انه فارسي مركب من كلمتي « سيب » بمعنى رائحة التفاح و « ستان » محل أي مغرس التفاح فحرف بالزبداني . ويعضد ذلك قول العرب : من زار الزبداني فاحت منه رائحة التفاح . وقيل ان الاسم عبراني بمعنى الهبة مثل كفر زبد وزبدل ويزبدين في انحاء سورية ولبنان .

(٢) راجع صفحة ٣٩٥ من سنة المجلد الأول .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بيت مالكم عطاء ثماني عشرة سنة اذا لم تدخل لكم فيها حبة قمح . فسكت الناس .
وقال الجاحظ في كتاب البلدان : وهو مبني على الاعمدة الرخام طبقتين التحتانية اعمدة كبار والتي فوقها صغار ، في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء والذهب الاخضر والاصفر . فاذهب حريق سنة ٤٦١ هـ رونقه . وقد توالت عليه الحرائق فشوهت محاسنه وفي حريق ماحوله في ٢٦ نيسان سنة ١٩١٢ م ظهر كثير من الاعمدة الكبيرة التي كانت حول الهيكل وجدران رومانية كثيرة .

ولقد شيد الوليد أبنية اخرى فاستقدم الصناع الى دمشق من بزنطية (القسطنطينية) ومن العجم وغيرهما فاشتهرت فيها الصناعات النفيسة منذ ذلك العهد ولا سيما الترصيع بالفسيفساء . ومن الابنية التي شيدوها بيت المال والدار الخضراء الى جنوبي الجامع وبلاط معاوية ودار سليمان بن عبد الملك ودار عمر بن عبد العزيز ودار هشام ودار ابنه مسلمة وهذه كلها حول الجامع الكبير ايضاً . وعقد الوليد ميداناً لسباق الخيل كما هو جار اليوم عند الافرنج ولا يزال ذلك المضمار الى يومنا يعرف (بالميدان) وهو من احياء المدينة المشهورة في غربها الجنوبي .

وحوّلت الدواوين من اليونانية الى العربية فرتبت على نمط جديد ووضع ديوان الختم وحزم الكتب والبريد وغيرها .

وكان اليمنيون الذين احتلوا دمشق منذ القدم قد نقلوا اليها صناعة الشفار والنصال اي السيوف وهم مشهورون بها فاتقنها الدمشقيون على يدهم وذاعوا بها شهرة فكانوا يستخرجون حديدهم من ضواحي المدينة ولا سيما من داريا حيث آثار المعامل . ولاتزال محلة المسبك في احياء النصارى من شرقي المدينة تدل على سبكه وكذلك اسم بني المسابكي من اسرها المسيحية . واشتهر فولاذ دمشق بغرابة سقايته وصلابته ورونقه حتى يقال ان بني (بولاد) الاسره المسيحية اشتهرت بصنعه فنسبت اليه ، ولهم حارة باسمهم ولعلها كانت معملاً لصنعه .

ولقد كثرت معامل السيوف في دمشق ونسب الى هذه الصناعة بنو السيوفي من مسلمين ومسيحيين ونقل الصليبيون الى بلادهم سر هذه الصناعة ولا سيما عمل الجوهر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبقي الدمشقيون متفوقين بها على الجميع الى ان سباهم تيمورلنك في أوائل القرن الخامس عشر فامات هذه الصناعة هنا واحياها في العجم .

ومما كان مشهوراً في دمشق القاشاني نسبة الى مدينة قاشان وهي قرب اصفهان العجم كان أهلها قد ورثوا عن البابليين هذه الصناعة فاشتهروا بها ونسبت الى مدينتهم ولقد دلت الآثار القديمة المحفورة في فلسطين ان الكنعانيين عرفوها ومن هذه الصناعة بقايا في بعض الجوامع والحمامات وفي متحفنا . وكذلك الفسيفساء وهي نقوش من الزجاج الملوّن المرصوف على الجدران والسقوف وفي القبة الظاهرية ابدع مثال لها بالوان جميلة واصباغ مزخرفة ورصف يأخذ بمجامع الابصار .

وكذلك الميناء أي جوهر الزجاج واتجر بها الدمشقيون من العجم ولها بقايا تدل على اتقانها هنا . وتزويق الجدران والسقوف بالنقش والاصباغ وفي دار اسعد باشا العظم امثلة رائعة منه . وكذلك الزجاج الذي وصفه كثير من المؤرخين والرحالة . والخزف المنقوش . وترصيع الآنية المعدنية بالذهب والفضة وقد اشتهرت في زمن الملك الظاهر البندقداري في القرن السابع للهجرة والترصيع بالصدف والقطع الملونة على الخشب . وفي معمل النعسان في الباب الشرقي امثلة رائعة من هذه الصناعة . وعرف الدمشقيون نسج الديباج وغيره من صناعة الورق والصباغ وغيرهما مما له بقية قليلة الآن لها بعض مزايا الاتقان . ولعلي افرد محاضرة خاصة لصناعات دمشق ومزاياها المشهورة باكثر تفصيل وأدق استقراء .

اما تجارة دمشق فانها بعد سقوط تدمر محط رحال القوافل التجارية بين الشرق والغرب تحولت الى هذه الحاضرة ولا سيما تجارة الهند والعجم والعراق وخافت تدمر (ملكة البر) واشتهرت بنتاج أرضها الخصيبة فتوطدت فيها دعائم العمران واهمها الزراعة والصناعة والتجارة . فقصدها تجار اوربة وغزرت ثروتها . فضلاً عن انها كانت مجتمع الحجاج الذين يذهبون الى القدس الشريف والى مكة المكرمة والمدينة المنورة في طريقها البرية . وبقيت مزهرة في تجارتها إلى ان فتحت ترعه السويس في اواسط القرن التاسع عشر الماضي فانحطت تجارتها وقل عدد الحجاج الذين يقصدونها لسهولة الطرق البحرية وتحويل القوافل البرية الى بواخر بحرية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكانت للامويين مجالس ادب مـــع شعرائهم وعلمائهم ومحاضرات ومساجلات ومكاتب ومتاحف لطرائفهم واشتهر كثير من النساء بادبهن الرائع في ذلك العصر وبينهن الخطيبات والشواعر اللواتي جالسن العلماء مثل سكينة ابنة الحسين التي انتقدت الفرزدق وجريراً واثنت على كثير وجميل . وصديقتها ام البنـــين زوجة الوليد التي ساعدته بتعزيز العدل والشفقة على الرعية وشاركته في السياسة والآداب بحصافة عقلها . فكانت له الآراء السديدة . ورابعة العدوية المشهورة بزهدها وبرها وادبها الى غيرهن ممن كانت بيوتهن مجالس ادب وسوق عكاظ للغة والشعر .

هذه لمعة من الحضارة الاموية في دمشق تشعب منها كلام الى ما بعدها لعلاقتـــه بها . على انه لما اضطرب حبل الامويين بظهور السفاح العربي حمل عليهم وخرب دورهم وشتت شملهم فمحا كثيراً من آيات حضارتهم التي انتقلت الى الاندلس واوربة وازهرت طويلاً فيها .

ولقد حل في دمشق المأمون بن هرون الرشيد العباسي مرتين . والخليفة المتوكل الذي نوى نقل دواوينه اليها ثم نقض ما ابرمه من هذا الرأي لاسباب لا محل لتفصيلها .

ودخلها سيف الدولة بن حمدان يتولى شؤونها سنة ٣٣٤ هـ فحدثت له في الغوطة ما اوغر عليه صدر الدمشقيين فرفضوه واليك القصة : لما ملك سيف الدولة دمشق خرج يتنزه في غوطتها مع الشريف العقيقي (صاحب الدار التي هي اليوم المكتبة الظاهرية) فقال له الملك : ماتصلح هذه الغوطة الا لرجل واحد . فقـــال العقيقي : هي لاقوام كثيري العدد . فقال سيف الدولة : لو أخذتها القوانين السلطانية لتبرأوا منها . فاعلم العقيقي الدمشقيين بالخبر . فتغيروا على سيف الدولة . وكاتبوا كافوراً يستقدمونه اليهم فجاء واخرج سيف الدولة منها .

وكانت بغداد في هذه الفترات تنازع دمشق الحضارة وتنافسها في التجارة وتقف في طريق عمرانها اقتصاصاً من الامويين الذين شيدوا حضارتها ورفعوا اعلام مجدها فتقهقرت وانحطت مدة طويلة .

فلما صارت شؤونها بيد الدولة الايوبية ورأسهـــا السلطان صلاح الدين الشهير ارتفع منار حضارتها وتبسط عمرانها واتسع نطاق مجدها فاسست فيها المدارس الكبيرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والمستشفيات والمياتم واختلف إليها العلماء والأطباء والصيادلة. حتى كان عدد مدارس القرآن الشريف سبعاً والحديث ثماني عشرة والشافعية سبعاً وخمسين والحنفية احدى وخمسين والحنابلة عشراً والمالكية أربعاً والطبية ثلاثاً . وكان فيها البيمارستان النوري وصيدليته . وبين تلك المدارس تسع أسستها فاضلات النساء من المالكات والأميرات . ذلك فوق ما كان فيها من الربط والخوانق والزوايا والمستشفيات . مما له بقايا دارسة واطلال عافية .

وشيدت فيها الدور الفخمة والقصور الشامخة . وأنشئت المكاتب الغاصة بالكتب المخطوطة النادرة ولا سيما في المدارس المذكورة ونبغ منها العلماء والشعراء والأدباء والمؤلفون على اختلاف أزمانهم ومراتبهم .

واشتهر فيها ملوك وأمراء رفعوا اعلام حضارتها بأبنية منيعة مثل الملك الظاهر والعادل وتنكز والاشرف ومصطفى لالا باشا ومراد باشا وسنان باشا . فكانت دولة المماليك المصريين التي أولها الملك الظاهر بيبرس البندقداري والجراكسة الذين أولهم الظاهر برقوق والعثمانيين الذين أولهم السلطان سليم وأمراء القيمرية كلهم يحبون العمران .

ومن متأخري هؤلاء الأمراء الحكام آل العظم الكرام فانهم ولعوا بالعمارة فشيدوا القصور الباقية وعززوا المدارس وجمعوا المكاتب فكان منهم بضعة عشر والياً في أنحاء سورية ولا تزال اثارهم تحدث بمجدهم الباقي مثل دار أسعد باشا وبعض أبنيتهم وكتب المكتبة الظاهرية المطرزة بأسمائهم وأوقافهم .

واشتهر بين الدمشقيين من أرباب الصناعات الأخرى والحذق من ذاع اسمهم في التواريخ وحفظت آثار أعمالهم شاهدة على براعتهم ولا سيما في صناعة الساعات التي تفوقوا فيها ومن قدمائهم الذين ذكرهم ابن أبي اصيبعة في كتابه (الحكماء) مهذب الدين أحمد بن الحاجب الدمشقي فانه كان قوي النظر في صناعة الهندسة وخدم في الساعات عند الجامع . وكذلك فخر الدين الساعاتي الذي عمل الساعات عند باب الجامع الأموي في دمشق . وممن ذكرهم غير ابن أبي اصيبعة علي بن عريف النحاسين الدمشقي النحاس الذي ركب مواد انفجارية نسف بها الأبراج الصليبية في حصار عكاء .

ولقد انتابت دمشق الحرائق والزلازل والفتن والفتوق وغيرها من النكبات فمحت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كثيراً من آثارها . ودفن معظم عمرانها القديم في الشوارع والبيوت فاذا أريد اظهاره احتيج إلى نسف الأماكن وتقويض الأبنية لاستثارة دفائن مجدها القديم . ويكفيها انها كانت آية البناء الشرقي قائمة على أجمل طراز هندسي أشبه بمدينة تدمر الشهيرة أيام عمرانها فكانت دمشق بيضية الشكل مستطيلة يحدق بها سور عظيم منيع ويخرقها من الشرق إلى الغرب الزقاق المستقيم وهو السوق القائمة من باب الجابية إلى الباب الشرقي وطولها نحو ميل وكان على جانبيها رواقان قائمان على الأعمدة الضخمة وبين الواحد والآخر نحو اثنتي عشرة ذراعاً ففي الرواقين تسير المارة وفي الشارع العريض بين الرواقين تسير العجلات والحيوانات ولا تزال بعض هذه الأعمدة بين البيوت ومنها اثنان في باب جيرون (النوفرة) إلى يومنا . ولما حفر أساس الثكنة في حي النصارى الممتدة إلى باب توما سنة ١٨٦٢ ظهرت آثار أعمدتها . وكذلك شارع طويل تحت الأرض من مأذنة الشحم إلى الباب الشرقي بأعمدته وهندسته . وكان عند مأذنة الشحم ملعب روماني مدرج (امفتياتر) . وكان الجامع الأموي في قلب المدينة وحوله سور له أربعة أبواب معروفة بقي منها باب البريد في غربيه وباب جيرون (النوفرة) في شرقيه . وهناك أعمدة ضخمة بديعة . وكان للمدينة ثمانية أبواب في كل جهة بابان حتى قيل فيها :

دمشق في أوصافها جنة خلد زاهيه
أما ترى أبوابها قد جعلت ثمانيه

وكانت سوق باب البريد أجمل أسواق المدينة عمر في وسطها مراد باشا قبة جميلة قائمة على أعمدة عظيمة عليها كتابات وأشعار بالعربية والكوفية :

ووصف مؤلف محاسن الشام أبواب المدينة بقوله : وغالب هذه الأبواب القديمة بنى عليها نور الدين الشهيد منابر على مساجد وجعل لكل باب باشورة كالسويقة بها حوانيت مملوءة بالبضائع فاذا حصنت المدينة وأقفلت الأبواب ، يستغني أهل كل باب من هذه الأبواب بما عندهم .

وأمام السور في شرقي المدينة بين الباب الشرقي ومقام الشيخ أرسلان بيت (نعمان السرياني) وهو مجذمة اليوم (مستشفى للجذام) وفي صدره أربعة أبواب ضخمة منحوتة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحجارة وبينها قنطرة وفيه مجذومو المسلمين . والمروي في التوراة ان نعمان هذا كان ابرص أو مجذوماً فقصد ايليا النبي مستشفياً فقال له اغتسل بالاردن . فقال له : عندي ابانة (بردى) وفرفراي (الاعوج) ومعناه السريع وعاد إلى بلده . وفي داخل الباب الشرقي مجذمة (القماطلة) المسيحيين أيضاً وهم المجذومون الذين تسميهم العامة بهذا الاسم (مقعطل) أو (مقلعط) وهي الحظيرة الآن .

وفي أحياء المدينة آثار ابنية مثل الجامع المعلق قرب المناخلية وكتابات كثيرة ولا سيما حول الجامع وفيه . واعمدة ومدافن للصالحين والمشاهير واضرحة للعلماء في الجهات ما عدا غربي المدينة فانه لم يدفن فيه صحابي .

ومن أهم ما فيها هندسة مياهها وتوزيعها على بيوتها واحيائها توزيعاً ذا اصول بضبط واتقان فتدور المياه باقنية وانابيب ناقذة من دار الى اخرى بنظام معلوم وعند آل الشطي في المدينة اصل قاعدة تفريع المياه وتقسيمها يعتمد عليه من يتولون اصلاحها والمياه متفرعة من سبعة أنهر هي أقسام بردى النهر الكبير الذي يتخلل المدينة بفروعه .

وفي هندسة ساعاتها القديمة ومزاولها وابوابها ونقوشها ما يشهد بعمرانها . وقد وصف بعض المؤرخين ساعة من ساعاتها عليها عصافير من نحاس ووجه حية من نحاس وغراب فاذا مضت ساعة من الوقت خرجت الحية وصفرت العصافير ونعب الغراب وسقطت حصاة . وباب الساعات من أبواب الجامع يسمى اليوم باب الزيادة

وسور المدينة ضخم تظهر بقاياه في بعض ارباض المدينة وحوله خندق عميق للحصار فضلاً عن أبراجها وقلعتها وآثارها ومرصدها الفلكي على جبل قاسيون الذي اشار ابن القفطي في تاريخ الحكماء الى الرصد فيه . ودار العدل التي شيدها نور الدين الشهيد للنظر في ظلم عماله للرعية وكان يجلس فيه لاستماع المظالم والشكاوي وهي الآن قصر المشيرية . وكذلك دار السعادة وغيرها .

ولقد نقلت الدول التي توالت عليها كثيراً من آثارها وطرائفها ومكاتبها فجمعت تلك البقايا اليوم في متحفة هذه المدرسة المعروفة بالعادلية وفي المكتبة الظاهرية ازاءها .

وفي اوائل القرن العاشر للهجرة احترقت سوق باب البريد وأبواب الجامع الكبير كما ذكر النجم الغزي في الكواكب السائرة وتوالى الحريق مراراً قبل ذلك الوقت وبعده

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وضربت دمشق ضربات كثيرة منها المظالم التي اجتاحتها سنة ٤٦١ هـ بزمن ولاية الأمير حصن الدولة الكتامي فجلا السكان عنها وأقفرت وخلت الغوطة من فلاحيها فلما حكم صلاح الدين ونور الدين أبطلا المكوس والمظالم وخففاها عن عاتق السكان فجدد عمرانها بعودتهم إليها .

أما عمرانها فانها اشتملت على غوطة عدت من متنزهات الدنيا الأربعة فكان عدد بساتينها في القرن الثامن مائة وواحداً وعشرين ألف بستان كما ذكر شيخ الربوة في كتابه على انها لا تتجاوز اليوم الألفين عداً . وهي التي وصفها المأمون العباسي بقوله : انها خير مغنى على وجه الأرض . وفيها المياه الغزيرة والسهول الفسيحة والخصب الطبيعي فحبذا لو اشترك معه الخصب الصناعي .

ولقد كان خراج دمشق على عهد معاوية أربعمائة ألف وخمسين ألف دينار . وكان ارتفاع دمشق سنة ٢٠٤ هـ ثلث مائة ألف وستين ألف دينار . وفي زمن المأمون كان خراجها أربع مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار .

فلقد كانت المظالم والتضييق على الفلاحين من أسباب تأخر زراعتها واعراض المواطنين عن معاضدة صناعاتها وحصرها باسر معلومة انقرضت أو أهملتها من أهم الضربات في تأخر الصناعة ومنافسة المدن والثغور لها بانحطاط تجارتها . ومعلوم أن التجارة تقوم بجناحيها اللذين هما الزراعة والصناعة فصارت مهيضة الجناح متأخرة .

ولعلنا نتسابق إلى رفع شأن أسباب العمران فنعيد إلى هذه المدينة القديمة مجدها أو شيئاً منه بمعاضدة رجال الدولة المنتدبة والحكومة الوطنية وأرباب النهضة استعادة لنجاحها الغابر وتوطيداً للمدنية الحديثة فيها والله ولي التوفيق بمنه وكرمه .

عيسى اسكندر المعلوف

الطبيبان

قال ابقراط : الطبيب الحاذق يصير بحذقه السم دواء نافعاً . والجاهل يصير الدواء سماً ناقعاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net